معيار العلم
في فن المنطق
لحجة الإسلام محمد الغزالي

محرّر ومصحح بغاية الدقة والاعتناء ومطرّز بتعليقات الفضلاء
ومصدّر بترجمة المصنف ترجمة مسهبة

نص على علو شأنه وسمو قدره وعظمة نفعه وأوصى بالاهتمام به
في سائر كتبه ومصنفاته ككتابه ميزان العمل والمشكاة
والتهافت والمستصفى والقسطاس وغيرها

الطبعة الثانية سنة ١٣٤٦ هـ ١٩٢٧ م

طبع على نفقة

الرحالة البحاثة المنقب عن الأسفار النفيسة

محيي الدين صبري الكردي

حقوق الطبع محفوظة للناشر

المطبعة العربية بمصر
شارع الموسكي

معيار العلم

في فن المنطق

لحجة الإسلام محمد الغزالي

محرر ومصحح بغاية الدقة والاعتناء ومطرز بتعليقات الفضلاء
ومصدر بترجمة المصنف ترجمة مسهبة

نص على علو شأنه وسمو قدره وعظمة نفعه وأوصى بالاهتمام به
في سائر كتبه ومصنفاته ككتابه ميزان العمل والمشكاة
والتهافت والمستصفى والقسطاس

الطبعة الثانية

طبع ...

الرحالة البحاثة المنقب عـ...

محيي الدين صبري الكردي

حقوق الطبع محفوظة للناشر

المطبعة العربية بمصر
شارع المزين بالموسكي

بسم الله الرحمن الرحيم

ترجمة المصنف

هو محمد بن محمد بن محمد بن احمد الامام الهمام بركة الأنام زين الدين وحجة الاسلام الهادي الى دار السلام أبو حامد الطوسى الغزالي صاحب الهمة العالية والفطرة الفائقة والفكر الدقيق والغور العميق .

ولد بطوس — من مدن خراسان — سنة خمسين وأربعمائة من الهجرة كريم الجوهر نفيس المعدن فما كاد يبلغ أشده حتى تعلم القراءة والكتابة(١) وأخذ يدرس العلوم الدينية فقرأ في صباه طرفاً من الفقه ببلده على احمد ابن محمد الراذكاني ثم سافر الى جرجان واختلف على أبي نصر الاسماعيلي حتى علق عنه التعليقة في الأصول ثم رجع إلى طوس . قال الامام أسعد الميهنى سمعت أبا حامد يقول قطعت علينا الطريق وأخذ العيارون جميع ما معي ومضوا فتبعتهم فالتفت الي مقدمهم وقال ارجع ويحك وإلا هلكت . فقلت له أسألك بالذي ترجو السلامة منه أن ترد علي تعليقتى فقط فما هي شيء تنتفعون

(١) حكي انه لما حضرت والده الوفاة وصى به وبأخيه أحمد الى صديق له متصوف من أهل الخير وقال له ان لى لتأسفا عظيما على تعلم الخط واشتهي استدراك مافاتني في ولدي هذين فعلمهما ولا عليك ان ينفد فى ذلك جميع ماأخلفه لهما فلما مات أقبل الصوفي على تعليمهما الى ان فنى ذلك النذر اليسير الذي كان خلفه لهما أبوهما وتعذر على الصوفي القيام بقوتهما فقال لهما اعلما انى قد انفقت عليكما ما كان لكما وأنا رجل من اهل الفقر والتجريد ليس لى مال فاواسيكما به وأصلح ماأرى لكما ان تلجأ الى مدرسة فيحصل لكما قوت يعينكما . ففعلا ذلك وكان هو السبب في سعادتهما وعلو درجتهما

به • فقال لي وما هي تعليقتك فقلت كتب في تلك المخلاة هاجرت لسماعها وكتابتها ومعرفة علمها فضحك وقال كيف تدعي انك عرفت علمها وقد أخذناها منك فتجردت من معرفتها وبقيت بلا علم وأمر بعض أصحابه فسلم الي المخلاة فقلت هذا مستنطق أنطقه الله ليرشدني به في أمري فلما وافيت طوس أقبلت على الاشتغال ثلاث سنين حتى حفظت جميع ما علقته وصرت بحيث لو قطع علي الطريق لم أتجرد من علمي • وقد روى عنه هذه الواقعة أيضاً الوزير نظام الملك .

وبعد أن أقام هذه البرهة في وطنه أزمع الرحلة في طلب العلم فرحل الى نيسابور ولازم إمام الحرمين وأخذ ذهنه ﴿ المعروف ﴾ يتلمس السبيل المؤدية الى العلم الصحيح • ويتطلب المعرفة الحقيقية ويتحسس نور الحق الصريح • وكان شيخه المذكور ممن خف فيهم قيد التقليد • ولم يثقل به عقال التقييد . فصار ذلك محركا للفطرة الغزالية • ومشعلا لتلك النار الطوسية فجد واجتهد في تلك العلوم التي كانت مشهورة ومعتبرة لذلك الوقت فما أتى على جميعها من فقه وأصول وكلام وخلاف وجدل وغيرها حتى سئمت نفسه تلك التقاليد ونهض لاطلاق عقله من ذلك الأسر الشديد • والبحث عما تنبعث اليه النفس الناطقة الانسانية من ذاتها • ويتسنى لها به الحصول على سعادتها ولذاتها •

وقد كان النعطش الى درك حقائق الأمور دأبه وديدنه من أول أمره وريعان عمره فلم يزل منذ المراهقة يفحص مباني العقائد • ويستكشف أسرار المذاهب • وهي بين عقيدة سنية أشعرية ونحلة عقلية اعتزاليه • وبين آراء ظاهرية فقهية • وطريقة باطنية روحية • وغير ذلك

نظر حواليه فرأى اختلاف الخلق في الأديان والملل • وتفرق الأمم في المذاهب والنحل على كثرة الفرق • وتعدد الطرق وكل فريق يزعم أنه الناجي

(وكل حزب بما لديهم فرحون) وليس لدى أي فرقة ما يدعو الى شدة التمسك والمحافظة على التعصب والتمذهب الا النشأة والوراثة والتقليد اذ رأى صبيان النصارى لا نشء لهم الا على التنصر وصبيان اليهود لا نشء لهم الا على التهود وصبيان المجوس لا نشء لهم الا على التمجس وصبيان المسلمين لا نشء لهم الا على التسلم وكان قد سمع الحديث المشهور (كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه)

أمعن النظر في ذلك طويلا • وتأمله اجمالا وتفصيلا • ثم رجع الى نفسه فرأى ان ايثار تقليد على تقليد وهم وحمق • وضلال وخرق • ولما عاود النظر مرة أخرى وجد أن أعظم العقبات التي كانت في طريق الانبياء والمرسلين • هي تقليد الوالدين والاستاذين والجمود على تراث الغابرين • وما زال يكرر الفكر في هذا الامر حتى انحلت عن قلبه عقدة التقليد • وانكسرت عنه وراثات التقييد • ورجع الى حقيقة الفطرة الأصلية تلك الفطرة التي يعرفونها في أوائل فن الميزان بأنها الحالة التي يكون فيها الانسان مجرداً عن العقائد الوراثية والآراء التلقينية القومية • ومنقطعاً عن أحكام الوهم التي لم تتأيد بعقل صريح وفكر صحيح • عند ذلك علم على الجزم واليقين • وبوجه هو أوضح وجوه التنوير والتبيين أن العلم الحقيقي هو الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافاً لا يبقى معه ريبة ولا يقارنه احتمال غلط ولا يتسع القلب لتقدير ذلك بل الأمان من الغلط ينبغي أن يكون مقارناً له بحيث لو تصدى للتشكيك فيه من يقلب الحجر ذهباً والعصا ثعباناً • لم يورث ذلك عنده شكا ونكرانا • وبذلك وضع أبو حامد بينه وبين الظواهر المليئة المناقضة للعلوم اليقينية • حاجزاً حصيناً • فلم تعد تجد إلى ذهنه سبيلا •

قال أبو حامد في أول المنقذ مشيراً إلى أن المقلد على خطر شديد بل على شفا جرف هار مامعناه ان افتراقات الامم والفرق في الملل والنحل هوة

سقط فيها الأكثرون وما نجا منها الا الاقلون (ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك)

وفي آخر الميزان قد أبان عن ذلك زيادة بيان وتمثل بهذا البيت

خذ ما تراه ودع شيئاً سمعت به * في طلعة الشمس ما يغنيك عن زحل

تلقى أبو حامد على أستاذه المشار اليه جميع الفنون الدينية فاتقنها وبرز فيها على أقرانه حتى صار من الاعيان المشار اليهم في زمن أستاذه وكان يتمدح به ولم يزل ابو حامد ملازماً له وهو بعد في المقام الأول من مقامات النظار وأهل النظر والاعتبار الى أن توفى الاستاذ سنة سبع وسبعين وأربعمائة فخرج من نيسابور الى العسكر ولقى الوزير نظام الملك فأكرمه وبالغ في الاقبال عليه وكان بحضرة الوزير جماعة من الافاضل فجرت بينه وبينهم عدة مناقشات ظهر فيها عليهم فأعجب به أهل العراق . واشتهر اسمه في الآفاق . وحاز الرئاسة في هذه الناحية كما حازها بجهة خراسان وسارت بذكره الركبان وصار ممن يشار اليهم بالبنان .

وفي سنة أربع وثمانين وأربعمائة فوض اليه الوزير تدريس المدرسة النظامية فاشتغل بالتدريس والتأليف. وصنف ما شاء من التصانيف. كالبسيط والوسيط والوجيز والخلاصة في الفقه وكالمنتحل في علم الجدل وكمأخذ الخلاف ولباب النظر وتحصين المآخذ والمبادي والغايات في فن الخلاف، لكنه مع هذا الشغل الشاغل لم تخمد نار ذكائه العقلي وحرصه على استجلاء جلية الحق واستخلاصه من بين اضطرابات الفرق فأخذ يمعن النظر في فن الكلام بدقة عجيبة وتحقيق بليغ غير انه بعد ان سبر غوره واكتنه كنهه صادفه صنعة لاتفي بما قصد اليه . ولا تقرب مما حوم عليه . اذ كان مقصودها حفظ عقيدة العامة وحراستها عن تشويشات المبتدعة حراسة اعتمدوا فيها على مسلمات خصومهم التي اضطرهم الى تسليمها اما التقليد أو اجماع الامة أو مجرد القبول

السطحي من ظواهر الكتاب والسنة فكان أكثر خوضهم في مؤاخذتهم بلوازم مسلماتهم وذلك عديم النفع في جانب من طلب الحقائق البرهانية فلم يكن فن الكلام في حقه كافيا . ولا لداء التعطش الى ماء الحقيقة شافيا . وليس فيه ما ينجي من ظلمات الحيرة في اختلافات الخلق . بل الحرص على ما أوتوا من الرزق . ذلك لان الاقيسة المؤلفة من المسلمات والمشهورات انما هي مقاييس جدلية كما ان المؤلف من المظنونات حجة خطابية . والمؤلف مما يوقع انقباضاً أو انبساطا في النفس طريقة شعرية . والمركب من الوهميات مغالطة وأقوال سفسطائية . أما البرهان فهو المؤلف من اليقينيات أو ما ينتهي اليها . تلك اليقينيات المعروفة بالحسيات والبديهيات والوجدانيات والحدسيات والتجربيات والمتواترات والقضايا الفطرية القياس . وانما تفصيل ذلك كله في فن الميزان . ثم حركه الى مطالعة الفنون الحكمية . والعلوم الفلسفية العقلية . ما رآه في بعض الكتب الكلامية من مجاوزة الذب عن السنة بقمع البدعة الى البحث عن حقائق الأمور وأحكام الجواهر والاعراض . وزاده انبعاثا ونشاطا الى ذلك ما وجده في تلك الكتب من عزو أمور الى الحكماء فاسدة الظاهر لاتليق بعامي فضلا عمن يدعى دقائق العلوم (أمور سمعوها فردوها بمجرد سماعها دون احكام وتفهم وتبين) فشمر عن ساق الجد في تحصيل ذلك وأقبل عليه بهمة قوية وعزيمة ثابتة ونشاط متواصل في أوقات فراغه من التصنيف والتدريس للعلوم الشرعية بالمدرسة النظامية ، وابتدأ النظر والدرس بالرياضيات . عملا بما أوجبه الحكماء من افتتاح التعلم والتعليم بها لتأنس النفس بالبرهان ويتربى فيها ذوقه حتى اذا جاءت الى النظريات الدقيقة أدركت الحق فيها على يسر وقرب . ثم ثنى بالمنطقيات . وثلث بالطبيعيات والالهيات . وختم بالاخلاقيات والسياسيات . وبالجملة فقد صرف عنايته الى تحصيل هذه العلوم فلم يكن الا ثلاث سنين حتى اطلع على مراميها وأسرارها . وميز بين قشرها ولبابها .

في ذلك الوقت كان في الناس حزبان متطرفان (أحدهما) ينكر على الفلاسفة جميع علومهم حتى ما كان منها بديهي الصحة جلي البرهان (والآخر) يقبل كل ما يسمعه عنهم بمجرد التقليد وحسن الظن لاغير. فهب بحكم ما انطبع عليه من بغض الاسترقاق والعبودية والجنوح الى النظر الحر. والفكر المستقل لمحاربة تلك التطرفات حربا علمية فانكر على الطائفة الاولى تطرفها بقوله ان الدين اذا كان ينبغي ان ينصر بانكار كل علم منسوب الى الحكماء وادعاء غلطهم في جميع أقوالهم حتى انكار مثل قولهم في الخسوف والكسوف وزعم ان ما قالوه على خلاف الشرع كان الدين اذاً مبنيا على الجهل وانكار البرهان القاطع وهو مما لايشتبه في فساده. قال أبو حامد ولقد عظم على الدين جناية من ظن ان الاسلام ينصر بانكار العلوم الرياضية وأمثالها من البرهانيات اذ ليس في الشرائع تعرض لهذه العلوم ولا في هذه العلوم تعرض للامور الدينية اه ولأن ما أدى اليه البرهان لايعارض الدين الصحيح اذ الحق لايضاد الحق. وأما الطائفة الأخرى فقد رد عليها في قولها لو كان الدين حقا لما خفي على هؤلاء مع دقة علومهم وغزارة فنونهم ورزانة عقولهم. قال أبو حامد وكم رأيت ممن ضل عن الحق بهذا القدر ولا مستند له سواه اه وهذا الرد من وجهين (الاول) انكار نسبة الجحود الى الحكماء اذ قد اتفق كل مرموق من الاوائل والأواخر. على الايمان بالله واليوم الآخر وانما الخلاف في التفصيل (الوجه الثاني) انه لايلزم من اصابة شاكلة الحق في موضع. اصابته في سائر المواضع. ولا يجب ان يكون الحاذق في صنعة حاذقاً في بقية الصنائع. فلا يلزم من اتقان الرياضيات إحكام الالهيات مثلا ولان حاصل ما ذكرتموه يرجع الى التحيز الى الفئة الفاضلة بظنكم والانخراط في سلكهم والترفع عن رتبة الجماهير والدهماء. والاستنكاف من القناعة بأديان الآباء ولعمري ان هذا لهو التقليد بعينه بل أشنع أنواعه اذ أية رتبة في العالم أخس من رتبة من يظن ان الانتقال

من تقليد الى تقليد جمال .ولا تتطلع نفسه الى رتبة البحث والاستدلال والبله من العوام بمعزل عن فضيحة هذه المهواة . فالبلاهة أدنى الى الخلاص من من فطانة بتراء . والعمى أقرب الى السلامة من بصيرة حولاء . ولبيان ان تقليد الفلاسفة فى دعاويهم أو فى دعاويهم وفى أدلتها جميعا قابل للتزعزع بعواصف الاعتراض والرد ألف كتابه «تهافت الفلاسفة» وليعلم أمثال هؤلاء المتهاونين بالشرائع فساد التسرع الى قبول كل ما يروى ويسمع دون اجراء مناقشة فيه وتحريك للذهن فى مجاريه . ولما ألف أبو حامد هذا الكتاب أصبح امام المتكلمين. وأضحى شيخ المناضلين عن الاسلام بل عن عموم الاديان

ففي هذه الظروف أظهر ابن الصباح دعوته . وأشاع مقالته . فاشتد به أزر الباطنية وتقوى ظهرهم . فعم شرهم . وتطاير شررهم • فورد عليه أمر جازم من حضرة الخلافة بتصنيف كتاب فى الرد عليهم والكشف عن حقيقة مذهبهم وانضم ذلك الباعث الخارجي الى ما انطوى عليه من الميل الى استكشاف أسرار المذاهب • فصار البحث عن ذلك ضربة لازب • فابتدأ بطلب كتبهم وجمع مقالاتهم فلم يكن الا قليل حتى اكتنه كنهها وهتك سترها •واستطلع سرها وألف فى الرد عليهم ولم يأل جهدا فى ذلك • فما رد به عليهم فى دعواهم الحاجة الى المعلم المعصوم ووجوب الرجوع اليه فى كل جليل وحقير• قوله ان المعلم المعصوم انما هو صاحب الشريعة عليه السلام فانه أبان عن طريق الرشد وأوضح المحجة • وأكمل الحجة • وأتم الارشاد والتعليم (اليوم أكملت لكم دينكم) وقوله ان طريق المعرفة الاصولية • هو النظر الصحيح يعنى المستوفى لجميع الشرائط المنطقية • ورد عليهم فى شرودهم بالتأويل عن الجادة وتوغلهم فيه بلا نظام ولا قانون بأن هذا يبطل الثقة ولا يبقى معه ما يسمى باللغة كما هو مسطور فى الاحياء وسائر كتبه• وبالجملة فقد صنف فى الرد عليهم عدة رسائل منها المستظهري وحجة الحق ومفصل الخلاف المقسم الى اثنى عشر

فصلا والدرج المرقوم بالجداول والقسطاس المستقيم الذي يذكر فيه موازين العلوم • والاستغناء عن المعلم المعصوم •

الغزالي المجدد

ولما فرغ أبو حامد من ذلك كله علم ان ما حصله ليس وافيا بكمال الغرض وان العقل لا يستقل بالاحاطة بجميع المطالب ولا بالكشف عن جميع المعضلات وان المطلوب هو استخلاص الحق من بين اضطرابات الفرق • والتمييز بين جميع المسالك والطرق • فاقبل بهمته على درس طريقة الصوفية من مطالعة كتبهم مثل قوت القلوب لأبي طالب المكي وكتب الحارث المحاسبي والمتفرقات المأثورة عن الجنيد والشبلي وغير ذلك من كلام مشايخهم حتى اطلع على كنه مقاصدهم العلمية وحصل ما يمكن ان يحصل من طريقتهم بالتعلم والسماع فعلم ان طريقتهم انما تتم بعلم وعمل اذ كان غاية ما يقصدون قطع عقبات النفس والتنزه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة حتى يتخلى القلب عن غير الله • ويتحلى بذكر الله • وظهر له ان أخص خواصهم من لا يمكن الوصول الى درجته بالتعلم والسماع بل بالذوق والسلوك لكن اماما كهذا الامام له من الشهرة وبعد الصيت والشأن الرفيع والجاه العريض ما تقدم ذكره يتعذر ويتعسر عليه بحكم هذه العوامل والعوائق الاقدام على سلوك طريق مفتاحه قطع العلائق من الدنيا بالكلية بحيث لا يلتفت القلب الى أهل وولد ومال ووطن ومنصب • ويصير الى حالة يستوي عنده فيها وجود ذلك كله وعدمه • اللهم الا اذا صادفته عناية • وكان من قوة الجأش واستمساك النفس في أسمى مكانة. فلم يزل يتفكر في ذلك عدة شهور أولها رجب سنة ثمانية وثمانين وأربعمائة وصار يتردد بين تجاذب تلك الاحوال • وحيثيات ما رآه واجباً

عليه من الاعمال فيوماً يصمم العزم على الخروج من بغداد ويوماً يحله وصار يقدم رجلا ويؤخر أخرى لاتصفو له رغبة فى طلب السعادة العملية بكرة ، حتى يحمل عليها جند الشهوة فيفترها عشية . كل هذا التردد جار ومنادي الايمان يناديه الرحيل الرحيل ، فلم يبق من العمر الا قليل ، وبين يديك السفر الطويل ، وجميع ما انت فيه رياء وتخييل ، حتى اذا غاص فكره يوماً فى حقيقة هذه الدنيا ولذاتها ، علم ان مدتها منحصرة ولذاتها منقضية منصرمة ، وان الموت وراء الانسان بالمرصاد ، وان الامل فى الخلود غفلة وغرور ، وحمق وجنون ، وان الحزم هو ابعاد القلب عنها طوعا قبل ان يطرد منها كرهاً وان أمر الدنيا غاد ورائح ، وليس صفاؤها بثابت ودائم ، بل الانسان معرض فيها لانواع من الشقاء ، وان الانحطاط عن همة الانبياء ، عيش البؤساء ودناءة فى الرجاء ، وان المؤمن الكريم ، بماذا يتميز عن الكافر اللئيم الا بعلو الهمة وسقوط رتبة الدنيا فى عينه وترفعه عن مشاركة الجهاء ، فى هذه الاشياء ، واستولى ذلك الفكر على قلبه ، وملك قواه واشمأزت نفسه عما هو عاكف عليه ونفرت بالكلية ، وانقبضت انقباضاً شديداً أورثه حزناً فى القلب ، ضعفت معه قوة الهضم ، ومرض مرضا عظيما حتى قطع الاطباء طمعهم فى العلاج وقالوا هذا أمر نزل بالقلب ومنه سرى الى المزاج ، فلا سبيل الى علاجه الا بأن يتروح السر عن الهم الملم فصغر هذا المرض الدنيا فى عينه وسقطت منزلتها عنده وبغضها اليه فسهل عليه الاعراض عن الجاه والمال ، والاهل والولد والاصحاب ، وصدقت نيته فى الاقدام على السير والسلوك الروحاني ، واستشار بعض متبوعي الصوفية فى الانقطاع الى تلاوة القرآن فمنعه وقال السبيل ان تستمر على قطع العلائق ، وتهذيب النفس من الرذائل والنقائص ، وتلاحظ نفسك فى ذلك دائما حتى يصير ملكة لك ، والاقرب الى ذلك هو مفارقة الوطن والعيال ، والخروج من العراق ، وملازمة الاعتكاف والتحنث حتى اذا رسخ فى القلب

تلك الحال ، لازمت الخلوة للتفكر ومطالعة ملكوت السموات والارض الى ان تكمل صفاتك ، وتتحلى بالفضائل ، بعد هذا التخلي عن الرذائل ، وعندذلك تستأهل لان تكون اماماً لا شغل لك الا دعوة الخلق الى الحق . ففارق بغداد وفرق ماكان معه من المال ، ولم يدخر إلا قوت الاطفال ، وقدر الكفاف ، ودخل الشام وأقام بها قريباً من سنتين لاشغل له الا العزلة والخلوة والرياضة والمجاهدة لتزكية النفس وتهذيب الاخلاق وتصفية القلب لذكر الله حسبما حصله من علم الصوفية ثم رحل الى بيت المقدس ومنها الى اداء فريضة الحج ثم قصد مصر ليسافر منها الى المغرب على عزم الاجتماع بالامير يوسف بن تاشفين لما سمع من عدله وبينما هو على هذه النية اذ سمع نعيه فصرف عزمه عن تلك الناحية . واستمر يجول فى البلدان والاقطار ، وهام على وجهه فى البراري والقفار ، لابساً المرقعة ومعه المزود وبيده العصا وبينما هو كذلك اذ لقيه بعض أصحابه فعذله على هـذا الحال والتمس منه الرجوع الى الوطن ومعاودة ماكان عليه ، فنظر اليه شذرا وقال لما بزغ بدر السعادة فى فلك الارادة وظهرت شموس الوصل

تركت هوى ليلى وسعدى بمعزل ... وعدت إلى مصحوب أول منزل
ونادتنى الأشواق مهلا فهـذه ... منـازل من تهوى رويدك فانزل
غزلت لهم غزلا رقيقاً فلم أجـد ... لغزلي نسـاجاً فكسرت مغزلي

وبالآخرة عاود الوطن ، واشتغل بتكميل نفسه ودعوة الخلق إلى الحق ، وبالتصنيف في العلوم المفيدة ، وأخذ يذكر في كتبه ما استفاده في مدة الخلوة والعزلة . واتخذ خانقاه للصوفية ومدرسة للمشتغلين بالعلم في جواره ووزع أوقاته على وظائف الخير من تلاوة القرآن ومجالسة أهل القلوب . وبالتصنيف والتأليف على ما تقدم . ولما استقر على هذا كتب اليـه الوزير

نظام الملك يستدعيه الى بغداد ومعاودة التدريس بالنظامية فأبى وكتب اليه جواباً شافياً هذا نصه :

﴿ اعلم ﴾ ان الخلق في توجههم الى ماهو قبلتهم ثلاث طوائف (احداها) العوام الذين قصروا نظرهم على العاجل من الدنيا فقتهم الرسول بقوله (ماذئبان ضاريان في زريبة غنم بأكثر افساداً من حب المال والشرف فى دين المرء المسلم) (ثانيتها) الخواص وهم المرجحون للآخرة. العالمون بأنها خير وأبقى . العاملون لها الاعمال الصالحة . فنسب اليهم التقصير بقوله . الدنيا حرام على أهل الآخرة . والآخرة حرام على أهل الدنيا وهما حرامان على أهل الله (ثالثتها)الاخصاء وهم الذين علموا أن كل شيء فوقه شيء آخر فهو من الآفلين. والعاقل لا يحب الآفلين وتحققوا أن الدنيا والآخرة من بعض مخلوقات الله وأعظم أمورهما الاجوفان . المطعم والمنكح . وقد شاركهم في كل ذلك البهائم والدواب فليس واحد منهما مرتبة سنية فأعرضوا عنهما وتعرضوا لخالقهما وموجدهما ومالكهما . وكشف لهم معنى (والله خير وأبقى) وتحقق عندهم حقيقة (لا اله الا الله) وان كل من توجه الى ما سواه فهو ليس بخال عن الشرك الخفي . فصار جميع الموجودات عندهم قسمين . الله وما سواه . واتخذوا ذلك كفتى ميزان وقلبهم لسان ذلك الميزان . فكلما رأوا قلوبهم مائلة إلى الكفة الشريفة حكموا بثقل كفة الحسنات . وكلما رأوها مائلة الى الخسيسة حكموا بثقل كفة السيئات . وكما أن الطبقة الاولى عوام بالنسبة الى الثانية فكذلك الطبقة الثانية بالنسبة الى الثالثة . فرجعت الطبقات الثلاث الى طبقتين. فحينئذ أقول قد دعاني صدر الوزراء من المرتبة العليا . إلى المرتبة الدنيا وأنا أدعوه من المرتبة الدنيا الى المرتبة العليا التى هي أعلى عليين . والطريق إلى الله من بغداد ومن طوس ومن كل المواضع واحد ليس بعضها أقرب من بعض . أسأل الله أن يوقظه من نومة الغفلة لينظر في يومه لغده قبل ان يخرج الامر من يده والسلام .

ثم توفي بعد ذلك بقليل طيب الثناء أعلى منزلة من نجوم السماء . وأهدى للأمة من البدر فى الظلماء . وكانت وفاته يوم الاثنين الرابع عشر من جمادى الآخرة سنة خمس وخمسمائة بوطنه طوس . ومشهده بها يزار بمقبرة الطبران. ورثاه أبو المظفر الأبيوردي بقصيدة فائية منها

بكى على حجة الاسلام حين ثوى ... من كل حي عظيم القدر أشرفه
فما لمن تمتري فى الله عبرته ... على أبى حامد لاح يعنفه

(ومنها)

مضى وأعظم مفقود فجعت به ... من لا نظير له في الناس يخلفه

ومدحه أبو العباس الاقليشى تلميذه بقوله

أبا حامد أنت المخصص بالمجد ... وأنت الذي علمتنا سنن الرشد
وضعت لنا الاحياء تحيي نفوسنا ... وتنقذنا من طاعة النازغ المردى
فربع عبادات وعاداته التى ... تعاقبها كالدر نظم فى العقد
وثالثها في المهلكات وانه ... لمنج من الهلك المبرح والبعد
ورابعها في المنجيات وانه ... ليسرح بالارواح في جنة الخلد
ومنها ابتهاج للجوارح ظاهر ... ومنها صلاح للقلوب من الحقد

(ومما يروى عنه من الشعر قوله)

سقمي في الحب عافيتى ... ووجودي في الهوى عدمي
وعذاب يرتضون به ... في فمي أحلى من النغم
ما لضر في محبتكم ... عندنا والله من ألم

(وقوله وقد سأله بعضهم عن كيفية استواء الله على عرشه)

قل لمن يفهم عنى ما أقول ... قصر القول فذا شرح يطول
ثم سر غامض من دونه ... قصرت والله أعناق الفحول
أنت لا تعرف اياك ولا ... تدري من أنت ولا كيف الوصول

لا ولا تدري صفات ركبت فيك حارت فى خفاياها العقول
أنت أكل الخبز لا تعرفه كيف يجري منك أم كيف تبول
أين منك الروح فى جوهرها هـل تراها فترى كيف تجول
أين منك العقـل والفهم إذا غلب النوم فقل لي ياجهول
فاذا كانت طواياك التى بين جنبيك كذا فيها ضلول
كيف تدري من على العرش استوى لاتقل كيف استوى كيف النزول
فهو لا أين ولا كيف له وهو فى كل النواحي لا يزول
جل ذاتاً وصفات وسما وتعالى ربنا عما تقول

ومما قيل فيه من الوصف والمدح نثراً : انه هو محمد بن محمد بن محمد بن احمد الامام الجليل حجة الاسلام وبركة الأنام هو محجة الدين التى يتوصل بها الى دار السلام . جامع أشتات العلوم . والمبرز فى المنقول منها والمفهوم . جرت الأئمة قبله لشأو ما قنع منه بالغاية . ولا وقف عند مطاب بل لم يبرح فى دأب لا يقضى له بنهاية حتى أخمل من الاقران كل خصم بلغ مبلغ السها . وأخمد من نيران البدع كل ما تستطيع أيدي المجالدين مسها . كان رضى الله عنه ضرغاماً إلا أن الأسود تتضاءل لديه وتتوارى . وبدراً تماماً إلا ان هداه يشرق نهارا . وبشراً من الخلق إلا أنه الطود العظيم . وبعض الناس ولكن مثل ما بعض الجماد الدر النظيم .

فان تفق الأنام وأنت منهم فان المسك بعض دم الغزال

جاء والناس فى رد فرية المتفلسفة الملحدة أحوج من الظلماء لمصابيح السماء وافقر من الجدباء الى قطرات الماء . فلم يزل يناضل عن الدين الحنيفي بجلادمقاله . ويحمي حوزة الدين ولا يلطخ بدم المعتدين حد نصاله حتى أصبح الدين وثيق العرى وانكشفت غياهب الشبهات وما كانت إلا حديثاً مفترى. هذا مع ورع طوى عليه ضميره . وخلوة لم يتخذ فيها سوى الطاعة سميره

ترك الدنيا وراء ظهره . وأقبل على الآخرة يعامل الله في سره وجهره . وكان شديد الذكاء • عجيب الفطرة • مفرط الادراك • بعيد الغور • غواصاً على المعاني الدقيقة • جبل علم • مناظراً محجاجاً • أعجب الخلق حسن كلامه • وكمال فضله وفصاحة لسانه ونكته الدقيقة واشاراته اللطيفة • فانتشر ذكره في الآفاق وفاق . ورزق الحظ الأوفر في حسن التصنيف وجودته . والنصيب الأكبر في جزالة التعبير وسهولته • واليد الطولى في حسن الاشارات • وكشف المعضلات • وفتح المغلقات • والتبحر في أصناف العلوم وفروعها وأصولها ورسوخ القدم في منقولها ومعقولها • والاستيلاء على اجمالها وتفصيلها • ومناقبه أكثر من أن تحصى • وفيما ذكر مقنع وبلاغ اه (هذا) ومصنفاته كثيرة بلغت في العد مبلغاً عظيماً • وكثير من عدها • ولكنا ارتأينا أن تعداد غير المطبوع منها • أو المطبوع في غير هذه الديار • ليس بجم الفائدة. فالتزمنا الاقتصار على ذكر المطبوع منها في هذا القطر ، فمنه ما طبع بمعرفة ناشر هذا الكتاب وهو :

كتاب (الأربعين) (الميزان) (الرسالة اللدنية) (أيها الولد) (الأدب في الدين) (القواعد العشرة) (الكيمياء) (رسالة الطير) (فيصل التفرقة) (كتاب جواهر القرآن) (مقاصد الفلاسفة) (معارج القدس في مدارج معرفة النفس)

ومما طبع بغير معرفته :

(الاحياء) (المشكاة) (بداية الهداية) (سر العالمين) (التبر المسبوك) (رسالة في الوعظ والاعتقاد) (المنقذ) (المضنون به على غير أهله) (الاجوبة الغزالية والمسائل الاخروية) (الدرة الفاخرة في كشف علوم الآخرة)(منهاج العابدين) (المقصد الاسنى) (الحكمة في مخلوقات الله) (مكاشفة القلوب) (القسطاس) (الاقتصاد) (الجام العوام) (التهافت) (محك النظر) (المستصفى) (الوجيز) (مختصر الاحياء) (آداب الصوفية) (الكشف والتبيين) (تنزيه القرآن عن المطاعن)

نبذة فى تاريخ العلمى

(١) ﴿ رأيه في التقليد ﴾

يرى ذلك الامام الجليل • ان الناس معادن خلقوا على فطر شتى • فمنهم الذكي والاذكى والبليد والأغبى • والقاصر والبالغ • والناقص والكامل • فضلا عن تباينهم في العادات والصناعات • فمنهم المشغول طول يومه بشغل معاشه • ومنهم المتجرد للعلم المنقطع لكشف المعضلات وايضاح المشكلات • ومنهم من هو بين هذا وذاك • لا يخلص لحال • ولا يتفرغ لنوع واحد من الاعمال فلذلك كله يرى كفاية التقليد في العقائد الحقة للأكثر وأنه إن كان لا بد من تلقينهم أدلة ما لقنوا الأدلة الوعظية الخطابية وهي ظواهر نصوص الأدلة النقلية كالذي استدل به القرآن على وجود الخالق ووحدانيته وقدرته على البعث والاعادة نحو قوله ﴿ فلينظر الانسان مم خلق خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب انه على رجعه لقادر يوم تبلى السرائر فما له من قوة ولا ناصر ﴾ وقوله (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) وقوله (اذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض) الآية

هذا رأيه في العوام والجماهير وبالجملة المشغولين بالحرف والصنائع ولاسيما أهل الجمود والبلادة منهم وبالطبع حالهم في الفروع أحرى بهذا الحكم الذي حكم به عليهم في الأصول وقياساً عليه لا بأس بتلقينهم بعض الأدلة فيها إن تيسر وذلك كله يجب أن يكون أولا في أيام الصباوة والمراهقة لأنه زمان صفائهم وعدم انهماكهم في جلب الارزاق والاقوات وثانياً في مدة العمر بتكليف الوعاظ والخطباء بالقاء الدروس الدينية في اعقاب انقطاعهم عن أعمالهم فهذا حكم العامة • وأما الخاصة وطلبة العلوم فهو يحرم عليهم التقليد

كل التحريم ويوجب النظر والاستدلال والبحث والاستقلال ولكنهم مع ذلك على مراتب فمنهم من يكفيه الأدلة الجدلية وهي الفن المستعمل في علم الكلام للاحتجاج ومنهم من لا يكتفي بذلك بل لا يقتنع إلا بالمقدمات اليقينية التى هي مواد البراهين قال :

فمن ذكر له الحجة الجدلية فقنعت بها نفسه فلا يصح أن يذكر له ما فوق ذلك فان توسم فيه مخايل الفطانة والاستشراف لليقين البحت وكان معه من الاستعداد والموادالعلمية مايكفيه لفهم البرهان فلا بأس بذكر البرهان ويستدل على هذا التوزيع بأمرين دليل عقلي ودليل نقلي

(أما العقلي) فهو ان حال الناس في تناولهم ما تحتاج اليه قلوبهم وفهومهم حالهم في التغذية البدنية فكما أن الطفل الرضيع لايوافقه الاغتذاء بلحوم الطيور كذلك لايلائم البرهان أقواما قصروا في طباعهم واذهانهم عنه وكما ان الرجل القوي يشمئز من الارتضاع بالبان المراضع كذلك الحكماء البالغون والعرفاء الراشدون ، يعافون غير اليقين الصافي. وكما ان الرجل الذي يغذى البدوي بخبز البر وهو لم يألف الا التمر أو البلدي بالتمر وهو لم يألف الا البر يسئ في هذا الاستعمال ويظلم ، كذلك من أراد ان يلقن الجدل أهل الخطابة او الخطابة أهل الجدل فهذاهو الدليل العقلي

(أما الدليل النقلي) فهو قوله تعالى ﴿ ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنةوجادلهم بالتى هي أحسن﴾والحكمة لاهل البراهين والموعظة لاهل الخطابة والجدل لمن ارتفع طبعه عن مجرد الكلام الوعظي ولم يرتق ارتقاء تاما الى البرهان الصرف

بعض امارات أهل التقليد

عند هذا الامام

قال في أول المنقذ: من شرط المقلد الا يعرف انه مقلد فاذا علم ذلك انكسرت زجاجة تقليده وهو شعب لا يرأب وشعث لا يلم بالتلفيق والتأليف الا أن يذاب بالنار ويستأنف له صيغة ثانية مستجدة وقال فى آخر كتاب الجام العوام ما نصه: فان قلت فيم يميز المقلد بين نفسه وبين اليهودي المقلد قلنا المقلد لا يعرف التقليد ولا يعرف أنه مقلد بل يعتقد فى نفسه ان محق عارف ولا يشك فى معتقده ولا يحتاج مع نفسه إلى التميز لقطعه بان خصمه مبطل وهو محق ولعله أيضاً يستظهر بقرائن وأدلة ظاهرة وان كانت غير قوية يرى نفسه مخصوصاً بها ومميزاً بسببها عن خصومه فان كان اليهودي يعتقد في نفسه مثل ذلك فلا يشوش ذلك على المحق اعتقاده كما أن العارف الناظر يزعم انه يميز نفسه عن اليهودي بالدليل واليهودي المتكلم الناظر أيضاً يزعم انه ميز عنه بالدليل ودعواه ذلك لا يشكك الناظر العارف وكذلك لا يشكك المقلد القاطع ويكفيه في الايمان الا يشككه فى اعتقاده معارضة المبطل كلامه بكلامه فهل رأيت عامياً قط قد اغتم وحزن من حيث يعسر عليه الفرق بين تقليده وتقليد اليهودي بل لا يخطر ذلك ببال العوام وان خطر ببالهم وشوفهوا به ضحكوا من قائله وقالوا ما هذا الهذيان وهل بين المحق والمبطل مساواة حتى يحتاج إلى فرق فارق يبين أنه على الباطل واني على الحق وأنا متيقن لذلك غير شاك فيه فكيف أطلب الفرق حيث يكون الفرق معلوما قطعاً من غير طلب فهذه حالة المقلدين الموقنين .